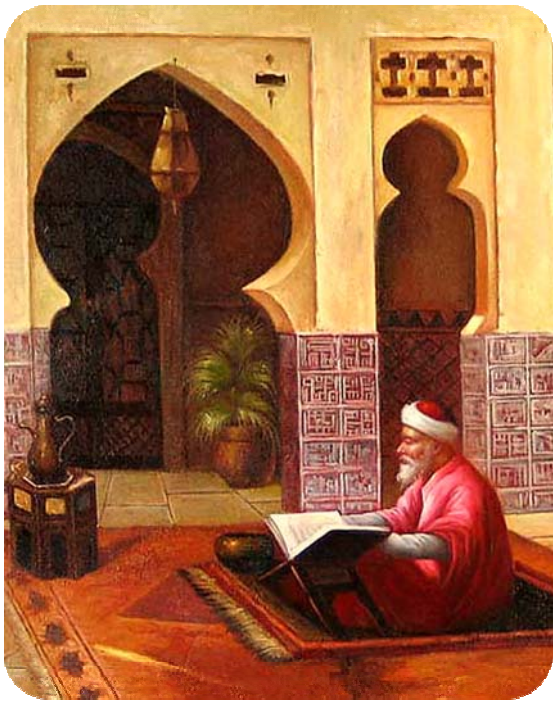

الكافيجي
مؤرخ أهمله التأريخ

يسري عبد الغني عبد الله

باحث ومحاضر في الدراسات العربية الإسلامية
خبير التراث الثقافي
القاهرة – جمهورية مصر العربية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

يسري عبد الغني عبد الله، الكافيجي: مؤرخ أهمله التأريخ.- دورية كان التاريخية.- العدد الواحد والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٣. ص ١٢٨ – ١٣٣.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخّص

قبل أن تلقي هذه المقالة بعض الأضواء الكاشفة على شخصية العلامة الموسوعي الكافيجي، ذلك الرجل الذي أهمله التاريخ، تحاول المقالة أن تحلل الأسباب التي أدت إلى زيادة الزخم التاريخي أو فلنقل الكتابة التاريخية في القرن الثالث الهجري حيث أصبح علم التأريخ علمًا مستقلاً له أصوله واتجاهاته. الكافيجي الذي ولد ٧٨٨ هـ وتوفى ٨٧٩ هـ (تقريبًا) مؤرخ لم يأخذ حظه من الدرس والتمحيص والتحليل لدى من تصدى ويتصدى لعلم التأريخ، فالرجل كان له دوره البارز والواضح في صياغة المنهج التأريخي، رغم كل ما قد يوجه إليه من نقد. عرف الباحث بالرجل، ومكان مولده، واستعان بعدد من المؤرخين ليعرفونا به، مثل: الزركلي والسيوطي والسخاوي، ثم تحدثنا ملقين الضوء التحليلي قدر الإمكان على كتابه المهم (المختصر في علم التأريخ) الذي قام روزنشال بترجمته والتعليق عليه. وعقد الباحث مقارنة بين منهج الكافيجي، ومنهج غيره من المؤرخين الذين عاصروه أو الذين جاءوا من بعده أو قبله، وبالذات العلامة ابن خلدون، مؤكدًا على أن أفكار الكافيجي مازالت قابلة للتداول، وقد كان لها أكبر الأثر على كتابات العديد من المؤرخين ومناهجهم ونخص منهم بالذكر السخاوي مؤرخ القرن التاسع الهجري.

مُقَدِّمَة

مع أوائل القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وعندما ازدادت التاريخية نتيجة استقرار دواوين الدولة العباسية، وبخاصةً دواوين: الإنشاء والجند والخراج والبريد، أمكن للمشتغلين بعلم التأريخ الانتفاع بما في هذه الدواوين من معلومات قيمة، لذلك يلاحظ القارئ والدارس أن كتابات تواريخ القرن الثالث الهجري احتوت على: عهود رسمية، ومراسلات سياسية، وإحصاءات للمواليد والوفيات، ومعلومات وافية عن كبار رجال الدولة من: الوزراء، والقادة، وعمال الولايات، نضيف إلى ذلك ما شاهده ذلك العصر من حراك علمي كبير تمثل في نشاط حركة الترجمة عن اللغات: الفارسية، والسريانية، واليونانية، واللاتينية، وغيرها من اللغات.

كما أن سهولة الانتقال في أرجاء الدولة الإسلامية دفعت الكثير من أهل العلم وطلابه، والمؤرخين، والأدباء، إلى الرحلة في طلب العلوم والمعارف، وكذلك طلب الرواية، ورؤية عجائب البلاد ومشاهدة آثارها، لهذا كانت مصادر التاريخ عند العرب في القرن الثالث الهجري أربعة هي:

أ . كتب السيرة والأخبار.

ب . السجلات الرسمية للدولة.

ج . المؤلفات المنقولة عن اللغات الأجنبية.

د . المشاهدة والمشافهة.

دورية إلكترونية . مُحكّمة . ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

وعندما كثرت المادة التاريخية - كما أسلفنا- اتجه الكثير من العلماء وثقات الفقهاء لدراسة التاريخ والتأليف فيه، ومن ثَمَّ أخذ التأريخ مظهره الرائع على أنه من أجل علوم الحضارة العربية الإسلامية، بل وأعظمها شأنًا وفقًا لما أجمع عليه أهل الرأي والفكر والنظر، وارتفع شأن المؤرخين بين علماء الثقافة العربية ولإسلامية في كافة أنحاء المعمورة.[١] ومنذ القرن الثالث الهجري عندما أصبح علم التأريخ علمًا مستقلاً له أصوله وقواعده، وجدنا اتجاهات معينة لكتب التأريخ،[٢] وبدأنا نطالع مؤلفات لأعلام تعد من مصادر وأمهات كتب التاريخ:

- كتاب: فتوح مصر والمغرب/ لعبد الرحمن بن الحكم، (ت. سنة ٢٥٧ هـ/ ٨٧١م).
- كتاب: القضاة/ للكندي (أبو عمر)، (ت. سنة ٣٥٠ هـ/ ٩٦١ م).
- كتاب: تاريخ بغداد وأعلامها/ للخطيب البغدادي، (ت. سنة ٤٦٣ هـ/ ١٠٧١م).
- كتاب: تاريخ دمشق/ لابن عساكر، المتوفى سنة ٥٧١ هـ
- كتاب: البيان المغرب في أخبار المغرب/ لابن عذارى، (ت. في القرن السابع الهجري / القرن الثالث عشر الميلادي).
- كتاب: تجارب الأمم/ لابن مسكويه، (ت. ٤٢١ هـ/ ١٠٣٠م).
- كتاب: الكامل في التاريخ/ لابن الأثير، (ت. ٦٢٠ هـ/ ١٠٢٣٣م).
- كتاب: المختصر في أخبار البشر (يقع في ٤ أجزاء)/ لأبي الفداء، (ت. ٧٣٢ هـ/ ١٢٣١م).
- كتاب: مروج الذهب ومعادن الجوهر/ للمسعودي، (ت. سنة ٣٤٦ هـ/ ٩٥٦م).
- كتاب: جامع التواريخ/ لرشيد الدين فضل الله الهمذاني، (ت. سنة ٧١٨ هـ/١٣١٨م).
- كتاب: المقدمة / لابن خلدون، (ت. سنة ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٦م).
- كتاب: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، وكتاب: عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط، وكتاب: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، وكتاب: السلوك لمعرفة دولة الملوك/ للمقريزي، (ت. سنة ٨٤٥ هـ/ ١٤٤٢م).
- كتاب: أنباء الغمر في أبناء العمر/ لابن حجر العسقلاني، (ت. سنة ٨٥٣ هـ/ ١٤٤٩م).
- كتاب: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان/ لأحمد العيني، (ت. سنة ٨٥٥ هـ/ ١٤٥١م).
- كتاب: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وكتاب: حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور/ لأبي المحاسن بن تغري بردي، (ت. سنة ٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩م).
- كتاب: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان/ لابن الصيرفي، (ت. سنة ٩٠٠ هـ/ ٢٤٤٩ م).
- كتاب: التبر المسبوك في ذيل السلوك، وكتاب: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ/ للسخاوي، (ت. سنة ٩٠٢ هـ/ ١٤٩٧م).
- كتاب: بدائع الزهور في وقائع الدهور/ لأحمد بن إياس، (عاش ومات في القرن التاسع الهجري/ القرن الخامس عشر الميلادي).

وغير ذلك من أمهات الكتب التاريخية التي غدت غذاءً لا مناص منه لأهل التأريخ والفكر والأدب، وهذه القائمة التي ذكرناها من الأعمال والأعلام، والتي قد تصل بنا إلى القرن الخامس عشر الهجري، تخلو. بكل أسف من مؤرخ على درجة كبيرة من الأهمية، مؤرخ أهمله التأريخ !!، إنه الكافيجي!!

ولا نكون على درجة من المبالغة إذا زعمنا أن الكافيجي مؤرخ لم يأخذ حظه من الدرس والتحليل لدى مَنْ يتصدى للتأريخ، ويكتب في التاريخ، فالرجل له دور كبير وبارز، رغم ما قد نلمحه من سلب أو إيجاب في منهج التأريخ الخاص به، فإنه يستحق البحث والدرس والتمحيص.[٣]

الكافيجي

يُعلل الزركلي سبب تسميته بـ "الكافيجي" لكثرة اشتغاله بالكافية في علم النحو، أي أن الرجل وهب جل حياته لشرح ودرس وتدريس الكافية في النحو. اسمه بالكامل: محيي الدين محمد بن سليمان الكافيجي، أصله من منطقة تسمى (كوك جاكي) في الأناضول التركية، ولد الرجل على حد روايته في سنة ٧٨٨ هـ، وتوفي سنة ٨٧٩ هـ ، أي أنه توفى وعمره يناهز الـ ٩١ عامًا، وقد يكون في روايته عن تاريخ مولده بعض المبالغة. يعود الزركلي ليرجع تاريخ مولده إلى سنة ٧٨٨ هـ، ووفاته إلى سنة ٨٧٩هـ،[٤] أي أنه يردد نفس كلام الكافيجي، بينما يقول لنا جلال الدين السيوطي في كتابه (حسن المحاضرة) أن الكافيجي ولد قبل سنة ٨٠٠ هـ وتوفي سنة ٨٧٩ هـ، بينما يقول صاحب (الفوائد البهية): أن وفاة الكافيجي كانت سنة ٨٧٣ هـ.

أما السخاوي، فهو يردد في كتابه (الضوء اللامع)، ما يظهر لنا من طريقة حديثه أن الرجل كان يعمل معلمًا شعبيًا على حد تعبير (فرانز روز نشال)، وهذا ما يؤكده لنا كل من ذكر الكافيجي ضمن تراجم رجال القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي). وهناك قصيدة كتبها الشهاب المنصوري في رثاء الكافيجي، والمعروفة لنا باسم (الجيمية) ليتأكد لنا دور الرجل كمعلم شعبي، بالإضافة إلى كونه مؤلفًا وباحثًا.

الجدير بالذكر؛ أن للكافيجي **عدة مؤلفات** يتواجد معظمها كمخطوطات في دار الكتب المصرية، غير أن معظمها قصير (رسائل) أو ناقص، ولم ينشر منها حتى الآن شيء يذكر، إلا أن أشهرها على الإطلاق كتاب: (المختصر في علم التأريخ)، وهنا لا ننسى الجهد المشكور الذي قام به العلامة/ فرانز روز نشال، في كتابه المهم المعنون بـ (علم التاريخ عند المسلمين)، والذي ترجم فيه كتاب الكافيجي أو فلنقل الجزء الأكبر منه، ترجمه إلى اللغة الإنجليزية، رغم أن (فرانز) ألماني الجنسية، وتجدر الإشارة هنا إلى أن كتاب (فرانز) قام بترجمته إلى اللغة العربية الدكتور/ صالح أحمد العلي

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

(عراقي الجنسية)، وراجعه الأستاذ/ محمد توفيق حسين (عراقي الجنسية)، وصدر سنة ١٩٦٣م.(٥)

ونعرف من مخطوطة كتاب (المختصر للكافيجي) أنه كُتب حوالي سنة ٨٦٧ هـ، وبالرغم من حداثة تاريخه نسبيًا، فإنه يُعد من أقدم الرسائل الإسلامية المعروفة لدى الباحثين عن التاريخ كعلم وكنظرية، في تاريخنا العربي والإسلامي. وقد يقول قائل إننا من الممكن أن نجد عن هذا الموضوع بعض الرسائل أو الكتيبات أقدم تاريخًا من مختصر الكافيجي، ونحن نحترم وجهة نظر القائل في ذلك، ولكنها - أي هذه الرسائل والكتيبات- لم تخرج للنور حتى وقتنا هذا، وإن كنا نشك أساسًا في وجود رسائل أو مؤلفات تعالج التأريخ كعلم أو كنظرية.

وعلى الفور يعترض معترض على كلامنا، ويسأل في دهشة واستنكار: وأين ابن خلدون وجهده المعروف في مقدمته الخالدة ؟! الحق يقال: أن ابن خلدون في مقدمته اعتبر في عرف العلماء وأهل الدرس التاريخي كاتبًا لكتاب مستقل، بمعنى: أن مقدمة ابن خلدون تعد كتابًا مستقلاً في حياة ابن خلدون، والذي أطلق على موضوع الكتاب الأول منها علمًا مستقلاً، ومع هذا فقد أريد بالمقدمة الخلدونية أن تكون مقدمة لتأريخ عظيم، وكانت تبحث في التاريخ كتاريخ وكفلسفة، ولا تبحث في كتابة التاريخ إلا بصورة غير مباشرة، نقول ذلك ونحن نجل ونبجل ونحترم كل جهود العلامة عبد الرحمن بن خلدون.

مما لا شك فيه؛ أن ابن خلدون كان صاحب فكر عقلاني نفّاذ ومعرفة موسوعية متفردة في عهد برز فيه الانحطاط الفكري في العالم الإسلامي، وقل فيه المبدعون، وكثر الاجترار والتقليد في أدبيات المعاصرين. لذا فإن آراء معظم معاصريه وبعض الذين تتلمذوا على يديهم كانت ناقدة ورافضة لآرائه وأفكاره التجديدية، ويكمن مبعث هذا الرفض والإعراض في أن إفهام بعض هؤلاء قد عجزت عن إدراك عظمة المقدمة، فانتقضوها وانتقضوا صاحبها معها، ولم يستفيدوا منها فائدة تذكر.(٦)

ويرجع بعض الباحثين هذا الإعراض الفكري إلى طبيعة **إسهامات ابن خلدون** التي وصفت بالنزعة العقلانية والعلمية المتطرفة التي تكاد تخلو من التعابير والمصطلحات العربية الإسلامية، ولا تضع العلم في الإطار القرآني المعروف في ذلك العصر. ونذكر من جملة هؤلاء الحافظ ابن حجر العسقلاني الذي يعتبر مقدمة ابن خلدون بمثابة ترف فكري، لا تمتاز بغير البلاغة والتلاعب بالكلام على الطريقة الجاحظية، وأن محاسنها قليلة، غير أن البلاغة تزين بزخرفها حتى يري حسنًا ما ليس بحسن.(٧)

ويبدو أن هذا الرأي كان يمثل رأي السواد الأعظم من مؤرخي ذلك العصر، فمثلاً نجد أن محي الدين محمد بن سليمان الكافيجي (٧٨٨ - ٨٧٩هـ) رفيقنا في هذه السطور وصاحب "المختصر في علم التاريخ" لم يشر إشارة واضحة إلى أدبيات ابن خلدون، التي بموجبها أطلق مؤرخو القرن التاسع عشر الميلادي على ابن خلدون لقب "مؤسس علم التاريخ"، ففي المختصر اكتفى الكافيجي بالحديث عن الخصائص العامة لعلم التاريخ، وتوضيح أغراضه وأهدافه وفوائده، ثم إظهار علاقته بالعلوم الشرعية الأخرى. ثم عرف علم التاريخ بأنه "علم يبحث فيه عن الزمان وأحواله، وما يتعلق به من حيث تعيين ذلك وتوقيته". ولبلوغ هذه الغاية اشترط أن تكون أهلية الراوي والمؤلف قائمة على "العقل والضبط والإسلام والعدالة". ومن هذه الزاوية يمكننا القول؛ بأن الكافيجي قد رجع بمنهج البحث التاريخي الذي اختطه ابن خلدون خطوة إلى الوراء، لأنه حصر آليات تقويم المصادر التاريخية في منهج الجرح والتعديل الذي يعوّل على الجوانب الخلقية المرتبطة بالإسناد الخبري دون الوقوف بدرجة معقولة عند الدلالات التاريخية التي تسهم في صياغة الحدث التاريخي وشكلياته.

وعلى ضوء هذه المعايير الخلقية في توثيق **الوقائع التاريخية**، حصر الكافيجي حركة المؤرخ من ناحية ثبوت الخبر التاريخي في خمسة وجوه: فالوجه الأول أعلاها مقامًا وهو وجه "الحضور والعيان" الذي يكون المؤرخ فيه شاهدًا على الوقائع التاريخية. وفي أدبيات الفيلسوف الألماني هيجل يطلق على هذا الوجه مصطلح "التاريخ الأصلي"، بحجة أن المؤرخ يروي فيه الأحداث بلسان حال العصر الذي تشكلت فيه وعقلية المؤرخ الذي عاصرها.

والوجه الثاني هو "اعتبار العلم واليقين" المرتبط بدرجة التثبت من صدق الخبر التاريخي بالنسبة للمؤرخ الذي لم يكن معاصرًا للحدث التاريخي على وجه "الحضور والعيان". ويقوم الوجه الثالث على مفهوم "غلبة الظن" وذلك في حالة تعذر الحصول على الخبر المتواتر أو المشهور ثم الاعتماد على الخبر الوارد على رواية الآحاد. ونلحظ أيضًا أن الكافيجي يقر مبدأ "ترجيح أحد الروايات المتعارضة" كوجه رابع، لأنه يعتقد أن هذا المبدأ يفتح باب البحث للوصول إلى أكثر الروايات ثقة. والوجه الخامس والأخير هو الوجه الذي يطلق عليه الكافيجي "اعتبار وجه غير الوجوه الأربعة السابقة"، وفي هذا المقام نجده يفضل السكوت عن الإفصاح بالخبر المشكوك فيه متعللاً بقول الرسول (ﷺ) "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك".(٨)

فهذه القواعد الخمس -التي أشرنا إليها- كما يرى صاحب المختصر يجب أن يعمل بها في ضبط الحوادث التاريخية المرتبطة بفعل الإنسان، وتقاس عليها الحوادث التابعة لها والناتجة عرضًا بفعل الحيوان، والنبات، والمعدن، و"سائر أنواع الكائنات من أرضيات وسماويات وما عداهما". وهذه الوجوه الخمسة تمثل القواعد الأساسية التي تستند إليها "أصول علم التاريخ" عند الكافيجي باعتبارها المنهج الذي يتم عن طريقه التمييز بين الأخبار والوقوف على مدى صحتها.

وإذا نظرنا إجمالاً إلى **منهج البحث التاريخي** عند الكافيجي وجدناه اقصر قامةً من المنهج الذي أخطته ابن خلدون متجاوزًا به أدبيات علم الحديث. وتجاهل صاحب المختصر لإسهامات ابن

خلدون يدفعنا إلى القول بأن الكافيجي كان من جملة المعارضين لأفكاره التجديدية.[٩]

أما كتاب شمس الدين السخاوي "الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ" فقد جاء بتفصيلات وافية لمفردات مختصر الكافيجي، وقدم عرضًا موضوعيًا للتطور الذي أحرزته الكتابات التاريخية ومناهج البحث التاريخي في التراث الإسلامي. ومن خلال استعراضه لأنماط الكتابات التاريخية استطاع السخاوي أن يبين طبيعة العلاقة الجدلية المتبادلة بين نمو المعرفة التاريخية وتطور مناهج البحث التاريخي، ويقدم في نفس الوقت مرافعة أدبية رائعة ضد الذين أرادوا النّيل من علم التاريخ وتحقير المؤرخين. وفي هذه المرافعة استطاع أن يؤكد ما ذكره ابن خلدون والكافيجي بأن علم التاريخ "فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت، وأن موضوعه "الإنسان والزمان، ومسائله وأحوالهما المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان وفي الزمان"، وأن يوثق لإسهامات بعض المؤرخين من أمثال الطبري والمسعودي والبيروني، ويشيد بدورهم الرائد في تراكم المعرفة التاريخية وتطوير أنماط الكتابة وتثقيف منهج البحث التاريخي الذي تجلّت معالمه في أدبيات ابن خلدون ومن ساروا على نهجه.

لقد حاول الكافيجي في العصر الذي عاشه (عصر الموسوعات والمؤلفات الضخمة) أن يكتب مختصره كي يظهر في المقام الأول اهتمامه لمعالجة نظرية للتأريخ دون غيرها من الأمور، وعليه يمكن القول ولأول وهلة: إن رجلنا لم يحالفه التوفيق إلى حد كبير فالنصف الثاني من الصفحات العشرين من المخطوطة والمحفوظة بقسم المخطوطات في دار الكتب المصرية مليء بالقصص، التي تحتاج إلى فحص وتمحيص، وهذه القصص يهدف منها الكافيجي كمؤرخ أن يوضح لنا أمورًا نظرية بحتة، وهو في هذا مثله مثل معظم مؤرخي هذه الحقبة، وفي الواقع أن معظم هذه الروايات القصصية مجرد أمور خيالية أو عادية، مجرد حكايات بعضها متداول لدينا وبعضها مبالغ فيه بشكل لا يتفق مع العقل والمنطق، أو حتى مع ما قرأناه في الكتب السماوية المطهرة مثل حديثه عن الأنبياء والرسل والملائكة (عليهم سلام الله).

حكايات الكافيجي تنتهي إلى آخر كتابه حيث يعطينا بعض المعلومات التاريخية، وإذا كان النصف الثاني من المختصر مليئًا بمادة مستهلكة أو لا قيمة لها من وجهة نظر التمحيص العلمي، فإن القسم الأول من الكتاب يعوض لنا تمامًا نقائص القسم الثاني.

كتاب (**المختصر في علم التأريخ**) أو (مختصر علم التأريخ)، هو أشهر كتب الكافيجي الجديرة بالاعتبار وذلك لأصالة طريقته، وجودة كتابته، وهو يتبع النظام المألوف في التعريف العلمي يرجع به إلى الفلسفة الأرسطو طاليسية، ولعله يذكرنا على الفور بكتب المقريزي (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)، والمعروف لنا باسم (خطط المقريزي)، التي يبدأ صفحاتها هو الآخر بثمان مسائل أرسطو طاليسية، ولعلنا نكون على صواب إذا قلنا أن مصدر الإلهام المباشر في هذا المضمار هو طريقة البحث الفقهي في الدراسات الإسلامية، تلك الطريقة التي إذا نميناها وطورناها في عصرنا الراهن لبعدنا كل البعد عما نحن فيه من تخلف وجهل وخرافة وخزعبلات.

نقول: لقد أجاب الكافيجي في مختصره عن بعض المسائل المتعلقة بعلم التأريخ من حيث؛ خصائصه، وأغراضه، وأهدافه، وفوائده، غير أنه كرس مجالاً أوسع للمعضلات الناجمة عن غموض كلمة (تأريخ) العربية، وعن مركز علم التأريخ في العلوم والدراسات العربية والإسلامية. ولم يكن الكافيجي مؤرخًا محترفًا بمعنى الكلمة التي نعرفها في أيامنا هذه، ولا يبدو أنه كان مهتمًا بمسألة الاحترافية هذه، فهو لا ينشد اهتمامًا بحتًا بهذا العلم، ولكن ذلك لا يقلل الباتة من محاولته التنظيرية في هذا الميدان.

والواقع أن للكافيجي كتاب آخر، ذكره بعض رجال الاستشراق، وهذا الكتاب يبدو أنه قد اهتم فيه بالمشاكل التاريخية البحتة، ونعني به كتاب (**النصر القاهر والفتح الظاهر**)، ولم أتمكن . بكل أسف . وبعد بحث مرهق من العثور على مخطوطة هذا الكتاب في خزائن دار الكتب المصرية، أو في مكتبة الأزهر الشريف، أو مكتبة معهد المخطوطات العربية. لقد كان صاحبنا يعتبر في زمانه ريحانة معرفة، ثقة في العلوم العقلية، وإن كان ذلك لا ينفي امتلاكه عمقًا معرفيًا في العلوم الدينية، وعلى رأسها علوم القرآن الكريم، والأحاديث النبوية المطهرة، والفقه.. وغيرها، ولعل معارفه العقلية كانت شغله الشاغل الذي حرص على إظهاره، والاعتراف به، وإفادة الناس بها.

ولابد من الاعتراف العلمي الصريح في هذا المجال أن أفكار الكافيجي عن علم التاريخ كما نستشفها من مختصره، كان لها الأثر الأكبر على **كتابات السخاوي** (المؤرخ المشاكس)، صاحب (التبر المسبوك في ذيل السلوك)، و(الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ)، فلولا كتاب (المختصر في علم التأريخ) للكافيجي، لما كان بالإمكان ظهور كتاب (الإعلان بالتوبيخ) للسخاوي، فإن المسائل التاريخية، وطريقة عرضها في كلا الكتابين متفقة تمامًا، ولا يوجد مبرر لأي محاولة افتراضية تدعي وجود مصدر مشترك لهما، غير أنه قد يكون من الخطأ ذم السخاوي لعدم تقديره المناسب لكتاب الكافيجي وجهده العلمي المتميز، فالسخاوي (حزب معارضة دائم) لكل شيء ولأي شيء، لسابقيه ولمعاصريه، ويمكن القول بحيدة وعقلانية في هذا الصدد: أن السخاوي كان يحاول أن يملك زمام نفسه، يحاول أن يعطي حلولاً جديدة للمسائل التي أثارها غيره، سواء أكان الكافيجي أم سواه.

كان السخاوي واضحًا في عرض مسائله كلها، بينما كان عرض الكافيجي شديد الإيجاز، ونظرة عابرة على عناوين مؤلفات الرجلين تؤكد لنا ما ذكرناه، ولا ننكر أن السخاوي -رغم ثرثرته الكثيرة- قد ملأ فراغًا كبيرًا لنواحي علم التاريخ في العلوم الإسلامية، وعليه فإن هذا الرجل يستحق منا دراسة مطولة لو كان في العمر بقية، رغم أنني قد كتبت عنه دراستين من قبل في كتابي: معجم المؤرخين

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري ١٩٩١م، و مؤرخون مصريون من عصر الموسوعات ٢٠٠٠م.

ويبدو أن شيخنا الكافيجي، كان سيء الحظ، فإبداعه العلمي لم توازه موهبة أو ملكة أدبية مواتية في فن التعبير الأدبي، فكل ما يقوله من ملاحظات تبدو وكأنها رؤوس أقلام (على حد تعبير الأخوة في العراق الشقيق)، محاضرات القيت على مجموعة من طلاب الفقه، مع ملاحظة أن الاصطلاحات الفنية التي كانت شائعة في عصر الكافيجي الموسوعي، هي اصطلاحات فقهية بحتة.

وإذا حاولنا استشفاف المعنى المضبوط لنص (المختصر في علم التاريخ)، يبقى في بعض الأحيان غامضًا بالنسبة لنا، وهذا يرجع -في رؤيتنا الخاصة- إلى أن الرجل عالم، ولا ضرر ولا ضرار أن تخون العالم قدرات التعبير الواضح عن نفسه، غير أن أفكاره تبدو هي الأخرى غامضة !!، ولعل علة ذلك أن هذه الأفكار لم تأخذ حظها من النضج والاستواء في ذهن عالم موسوعي مثل الكافيجي.

أعود بك إلى مخطوطة (**المختصر في علم التأريخ**)، وهي مرجعنا في الحديث عن علم التأريخ في فكر الكافيجي، حيث أجدها قد كتبت بعد ثمانية أيام فقط لا غير من تاريخ انتهاء مؤلفها من كتابتها في سنة ٨٦٧ هـ، ويبدو أن أجدادنا (رحمة الله عليهم أجمعين) كانوا لا يعانون من أزمة نشر، أو من غلاء دائم في خامات الطباعة، كما هو الحال في أيامنا الصعبة هذه.[١٠]

ونقلب في مخطوطة الكافيجي لنعثر على اسم ناسخ المختصر، إنه تلميذه البار علي بن داود الجوهري المؤرخ، الذي ولد سنة ٨١٩ هـ، وتوفي سنة ٩٠٠ هـ، وحدثنا عنه ابن إياس في الجزء الثاني من كتابه المشهور (بدائع الزهور في وقائع الدهور)، كما حدثنا عنه العلامة كارل بروكلمان في تاريخه، إلا أنه –وكالمعتاد– نجد السخاوي يجعل من هذا الرجل شخصية رديئة جدًا، دون أدنى مناسبة !! ؟؟

في مكتبة معهد المخطوطات العربية في القاهرة، نجد صورة فوتوغرافية لكتاب (المختصر) للكافيجي، وهي طبق الأصل لصورتين متواجدتين في مكتبة (آيا صوفيا) التركية، هذه المخطوطة نسخت في يوم الخميس الموافق ٢٣ من شهر شعبان لسنة..؟، لم أتمكن من قراءة السنة أو بقية الكتابة، ولعلها تكون نفس السنة التي تم فيها تأليف المختصر، غير أن يوم الثالث والعشرين من شهر شعبان سنة ٨٦٧ هـ يوافق ١٣ من شهر مايو سنة ١٤٦٣م يصادف يوم جمعة !! ؟؟

كما نلاحظ؛ أن النسخة المخطوطة التي كتبها الجوهري كتبها لاستعماله الخاص، وهذا يتضح من خطها الرديء جدًا، والذي يصعب قراءته. أما النسختان المتواجدتان في تركيا فكاتبهما تلميذ آخر للكافيجي، يدعى "يحيى بن محمد الدمسيسي"، والذي ولد سنة ٨٢٣ هـ، وكان هو الآخر مثل علي بن داود الجوهري مؤرخًا وتلميذًا ودودًا للكافيجي، والشيء المثير للدهشة أن الدمسيسي ظل على علاقة وطيدة وقوية بالسخاوي، بعكس الجوهري، وعندما كتب السخاوي كتابه (الضوء اللامع) وبالتحديد الجزء الأول، كان الدمسيسي حيًا يرزق، فحظى بقسط وافر من مديح السخاوي، وعلى غير العادة السخاوية المعروفة!! ويتضح من نسخة الدمسيسي أنها نسخت أو كتبت للنشر (للبيع)، ولذلك كتبت بخط واضح، خط جيد ومقروء، والكتابة الرديئة في نسخة الجواهري لا تعني جودة النص، فالنص مفكك ومكتظ بالأخطاء الإملائية واللغوية والأسلوبية، عكس نسخة الدمسيسي.

والجدير بالذكر هنا؛ أن نؤكد على أن حديثنا عن الكافيجي هذا لا يغني عن دراسة عميقة لهذا الرجل، دراسة علمية تظهر دوره الموسوعي، وإضافاته المفيدة في العلوم العقلية والنقلية.

السيوطي يتكلم عن محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود الرومي الحنفي، ومحيي الدين، أبو عبد الله الكافيجي، ويمتدح أستاذيته في كتابه (حسن المحاضرة)، ذاكرًا أنه لازمه لمدة ١٤ عامًا، وتلقى العلم في حلقته واصفًا إياه بالمحقق، وعلامة الدنيا، أو علامة الوقت، وأستاذ الدنيا في المعقولات، وأنه توفى سنة ٨٧٩ هـ.

لقد تلقى الكافيجي علومه على يد البرهان حيدرة، والشمس بن العتري، وغيرهم من جهابذة العلم في تلك الفترة التي عاشها وتقدم في فنون المعقول، حتى صار إمام الدنيا، وصاحب التصانيف العديدة. وجميع أعمال الكافيجي (ما عدا القليل جدًا) مازالت مخطوطة، لم ترى النور حتى الآن، وها نحن نقدمها لأهل الدرس والتحقيق، لعلها تجد مَنْ يتناولها، ويعرف بها الأجيال المتعطشة لمعرفة تراث الأجداد الجاد المفيد. وإليك بعض عناوين **مؤلفات الكافيجي**:

(١) مختصر في علم التأريخ.
(٢) أنوار السعادة في شرح كلمتي الشهادة.
(٣) منازل الأرواح.
(٤) معراج الطبقات.
(٥) قرار الوجد في شرح الحمد.
(٦) نزهة المغرب (في علم النحو).
(٧) التيسير في قواعد التفسير.
(٨) حل الأشكال (في علم الهندسة).
(٩) الإحكام في معرفة الإيمان والأحكام.
(١٠) الإلماع بإفادة (لو) الامتناع.
(١١) جواب في تفسير: {والنجم إذا هوى ..}.
(١٢) مختصر في علم الإرشاد.
(١٣) شرح كتاب ابن هشام في النحو.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

خاتِمَة

كانت وفاة الكافيجي ليلة الجمعة، الموافق الرابع من جمادى الأولى، سنة ٨٧٩ هـ، أي بعد عامين فقط من سقوط الأندلس، وقد رثاه الشاعر المشهور على أيامه "الشهاب المنصور"، بأبيات مطلعها:

بكت على الشيخ محيي الدين كافيجي
عيوننا بدموع من دم المهج
كان أسارير هذا الدهر من درر
تزهي فبدل ذاك الدر بالسحج.

رحم الله الكافيجي وجزاه خيرًا عما قدم للعلم والمعرفة

الهَوامِشُ:

(١) سيد الناصري وحسين ربيع، **دراسات في علم التاريخ ومناهجه**، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٧، ص ١٢٥ – ١٣٤. (باختصار من عندنا)

(٢) علي أدهم، **تأريخ التاريخ**، سلسلة كتابك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٩، ص ١٢ – ١٥.

(٣) يسري عبد الغني عبد الله، **مؤرخون مصريون من عصر الموسوعات**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٦١ وما بعدها.

(٤) الزركلي، **موسوعة الأعلام**، مادة: الكافيجي، حرف الكاف، طبعة بيروتية، ١٩٩٠.

(٥) فرانز روز نشال، **علم التاريخ عند المسلمين**، ترجمة: صالح العلي، مراجعة: محمد توفيق، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بغداد، ١٩٦٣، الجزء الخاص بكتاب الكافيجي: المختصر في علم التاريخ.

(٦) سالم أحمد محل، **المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب**، سلسلة كتاب الأمة، العدد ٦٠، قطر، الفصل الثاني، نشأة التدوين التاريخي والمنظور الحضاري.

(٧) أحمد إبراهيم أبو شوك، **علم التاريخ: إشكالات المنهجية ومشروعية الأسلمة**، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن، العدد رقم ٢٤، ص ٤ . ٧.

(٨) يسري عبد الغني عبد الله، **الكافيجي مؤرخًا**، مقالة نشرت في مجلة منبر الإسلام، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، عدد رجب، ١٤٠٥ هـ، ص ٦١ – ٦٥.

(٩) ناظم مهنا، **التاريخ والرواية التاريخية**، صحيفة تشرين السورية، عددها الصادر في ١٨ مارس ٢٠١٢ .

(١٠) وبالطبع أنا لا أتحدث عن النشر عن طريق الإنترنت الذي يسمح لكل مَنْ هب ودب على وجه البسيطة أن يقول أي شيء وكل شيء، دون أي ضابط أو رابط، أو مراعاة لأصول وقواعد النشر العلمي المحترم، اللهم إلا بعض الاستثناءات النادرة جدًا مثل مجلتنا الجادة المتميزة التي تكرمت بنشر هذه السطور (دورية كان التاريخية).

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449